



الموسيقى فن وإلهام

للأستاذ محمد السيد المويلحي

—

أكثر الناس في هذا الزمن يعتقدون أن الموسيقى « علم » ككل العلوم لها قواعد ومبادئ ، ولها مناح ونواح منشعبة متفرقة لا يمكن جمعها وضمها إلا بالبحث والفحص والدرس ، بل هم يعتقدون أكثر من هذا ؛ يعتقدون أنها تخضع للدأب والسكد ، وتعلو سرها وسحرها لمن يتعب أكثر من غيره في طلبها ... !

وليس هذا في مصر والشرق فحسب ؛ بل في جميع بقاع العالم ، وفي كل البلاد التي بلغت ذروة الحضارة وأدركت نهاية

في فصل « كرم الأخلاق ولؤمها » ص ٧٠ الطبعة الثانية، وها من حشد الشيخ الذي لا يقوم على أصل من البيان والبلاغة أجّل ، إن كثيراً مما وقع في كتاب الشيخ اليازجي — على جلالة — ، إن هو إلا مجازات واستعارات كأخيلة المغموم مادتها من المذبان اللغوي الذي لا يصل إلى الحقيقة بأسباب من منطق العقل . والبلاغة ليست إلا حفظ النسبة بين الحقيقة اللغوية والمجاز البياني ، فكل ما لم يكن كذلك من المجاز والاستعارة فهو كُتُوبٌ يتشكك به من ليس له طبع أدبي رفيع . وجهد اليازجي كان حشداً من كلام المصور المتقدمة في العربية ، فأخذ من الجيد والردى على غير نقد أو تمييز

فكان واجب الأستاذ أحمد أمين — الزاري على الشمر الجاهلي وواصفه بالجناية على الأدب العربي — أن ينقد مثل هذه العبارات الضعيفة المهالكة التي لا تتصل بسبب إلى البلاغة العربية على اختلاف عصورها — لا أن ينقلها إلى كلامه . وإلا فليُنظر الأستاذ إلى أثر هذه المجازات في بيان الشباب الذي يحبه ويمجبه بأدبه ، ويتلقى كلامه بالإجلال وحب الاقتداء محمد محمد مارك

المدنية ... فهناك المدارس المختلفة ، والمعاهد المتباينة ، والجامعات المختصة في تدريس كل (مادة) من مواد الموسيقى ؛ وهناك الأساتذة الذين قطعوا كل عمرهم أو جلّه في التخصص والانقطاع لتجويد ناحية واحدة يكررونها صباحاً ومساءً ... حتى (الصوت) استطاعوا أن يوهموها الناس أن في مكنهم السيطرة عليه بل وخلقه خلقاً جديداً ... !

ولكن هذا ليس من الواقع في شيء ، فإن كان للموسيقى فروع وأصول ، وقواعد ونظريات ، فليس معنى هذا أن كل من يلعبها أو يهضمها يسمى (موسيقياً) أو فناناً يعبر عن خوايل الناس بروحه الشفافة الملهمة

الموسيقى ليست مهنة تُعلم ، ولا حرفة تُجَاد ، ولا صنعة تُكتسب ، وإنما هي فن وإلهام كما قلت في رأس هذا الكلام ... هي إلهام لأنها أسمى من أن تخضع لقوى البشر الذي يخضع لها ، وهي قوة سحرية روحية تفعل في النفوس ما لا تفعله قوى الأرض مجتمعة متضامنة ... فهي تُضحك وتُبكي ، وتُفرح وتُحزن ، وتُسعد وتُؤلم في لحظات ، فهل نعمة قوة إنسانية (مكتسبة) تستطيع أن تملك مثل هذا السحر ؟

إن (العالم) الذي يقسم لك الموسيقى إلى قواعد غربية وقواعد شرقية وموشحات وأدوار ثم يقول لك إن للموسيقى عبارة عن (دواوين) وأن كل ديوان له درجات أساسية و (نباتات) وعربيات و (تيكات) وأن بين اليكاه والمشيران كذا من المسافات ، أو أن يقول لك إن الديوان الأول (مثلاً) يحتوي على ثلاثة (تكوك) وسبعة عربيات ... الخ ويروح مقارناً بين الموسيقى للعربية ، والموسيقى العربية ، ويفضل إحداها على الأخرى ناسياً الذوق ، والطبع ، والمادة ، والبيئة — لمو أبعد الناس عن الموسيقى وعن الفن الصحيح وإن كان هو بأبي ذلك . فليس الفن أرقاماً تجمع وتطرح وتحفظ وتعرف وإنما هو قوة هائلة معجزة يسوقها اللهم للبقرى أمواجاً سحرية ولو كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولا يعرف النبات والتيكات والعربيات ... ! !

(فوزار) الموسيقىار الألائ الخالد عزف وهو في طفولته على البيان والكمان والآرغن من غير أن يتعلم درساً واحداً عليها ! ! ولعل القاري يدهش حينما يعلم أنه كان يسبق الأساتذة

الذين أتى بهم لتعليمه ، وتوجيه عقيرته في الوجهة الصحيحة (كما كانوا يزعمون) حتى إن أحدهم بكى أمام سحر الطفل ، وقال لوالده :

« ليس عندي ولا عند غيري ما يجهله ابنك ، إنه ابن الموسيقى وقد علمته سرها وسحرها » (وبهوفن) الذي كان يطلق عليه (إله الموسيقى) والذي أرهقه أبوه في طفولته وظن أن كثرة (التعليم والإرشاد) تنفعه . كان يبكي لأمه ويشكو ظلم هذا الوالد ويقول لها : لقد أوشك أبي أن يفضني في الموسيقى وفي الحياة نفسها ... فلما تركوه وشأنه كان لا يفارق البيان أبداً إلا ليأكل أو لينام ... !! وبمدها أخرج آياته الخالدة التي لا تزال إلى اليوم سموا لا يذاني ...

قد يقول قائل وما فائدة تلك المدارس إذن ، وما فائدة هؤلاء الذين نصبوا أنفسهم للتدريس وجعلوا من أنفسهم حفظة لقواعد الموسيقى وعلومها ... ؟

فأنتهم الفوجيه والتبذيب فقط . أما الخلق والابتكار والقدرة والسيطرة والتحكم في ميدان المواطف ، أما التغافل في الأعماق والسرمان في الدم والتلاعب بالأرواح ، فهذا كله لا يعرف العلم ، ولا يخضع للعلماء ... !

إن الذي يفنى أو يعزف لا يصف النظريات ، ولا ينتقل من نغم إلى نغم مرسوم موضوع ، وإنما هو ينطلق بروحه فتتحكم في لسانه أو بنانه وتروح مستولية على خليجات المستمعين ، وطوبى لمن يأمره فنه أولاً قبل أن يأمر غيره لأنه يفعل للمجب ... ولا يهمه بعد ذلك أخرج على (الوحدة) أم ظل محافظاً عليها ، ولعل من هذا الباب قصة المرحوم (عبد الحى حلى) الذي كان يشدولية كبليل نشوان والناس من حوله سكارى من نحر الطرب فخرج على (الوحدة) فأرشده (عازف القانون) فزجره قائلاً : خل الوحدة لك ولأمثالك ، إننى أغنى لهؤلاء الذين يفهمون الموسيقى ! ولهذا لا يمكن لطرب يفنى لحن غيره ، ويترجم إحساس غيره ، أن يصل إلى درجة مطرب يلحن لنفسه ويترجم إحساسه مهما أوتى من حسن الصوت وجمال الإلقاء ، لأنه يكون ممثلاً وحاكياً ، بل يكون كاذباً في رسالته ، والموسيقى لا تعرف الكذب لأنها هي نفسها رسالة صادقة !

رب قارى يقول إنه يسمع بعض المطربين والمطربات من الذين يغنون تلحينات غيرهم قد وصلوا إلى مرتبة سامية لا تدانى ، حتى من الذين يلحنون لأنفسهم ؟ وردى على هذا الاعتراض أن القارى سيقنع إذا عرف أن هؤلاء المطربات والمطربين لا ينتزعون الإعجاب ولا يسيطرون بسحر فهم وصوتهم إلا إذا انطلقوا من جو تلحين الموضوع وتصرفوا من عندهم التصرف الذى يليه إحساسهم ...

إن بعضنا يسمع (أم كلثوم) مثلاً وهي تغنى قطعة موضوعة مرسومة فيظل هادئاً أو مشجعاً حتى إذا تصرف وترجم إحساسها حاج وماج وفقد سلطانه على نفسه !

وعبد الوهاب ، هناك من هو ألمع منه صوتاً وأصق نبهة ومع ذلك لا يقاس إليه ، لم ؟ لأن عبد الوهاب لا يترجم للناس إلا إحساسه ، ولا يصور لهم إلا روحه ...

ومالنا نذمب بيمداً ؟ إن القصبجى والسنباطى وزكريا وهاشم ومحمود صبح ، وهم أئمة التلحين في مصر والشرق قاطبة ، لو غنوا تلحيناتهم بأنفسهم - وبعضهم قبيح الصوت - لأدوها أحسن من غيرهم ولو كان أجمل صوتاً وأقوى أداء ، وليس هذا بهجيب أو غريب ، فلن يكون التقليد كالمقلد أبداً ... !

لنرجع إلى الفن للمهم والفن المكتسب ...

في الشرق والترب بمض للعلماء الذين تخصصوا في دراسة النظريات والقواعد الموسيقية فألوا بها إلماً تاماً ، وأصبحوا (علماء) ينتفع بملهم وطرقهم في دراسة الموسيقى الذين يمتقدون أن الموسيقى تخضع للدرس والبحث كما قلنا ، ومع ذلك ترى هؤلاء العلماء يتساوون مع الجميع - إلا الموهوبين - في الدجز عن فهم الموسيقى الحققة وعدم القدرة على الوصول إليها ! لأنهم يصفون الطرق والمسالك التي تؤدي إليها يزعمون أن الإنسان إذا فخص وصل ، فإذا سألهم ولم لم تصلوا أنهم بمد طول بحشم وفحصكم إلى مرتبة اللهم المبقرى الذى لم يقطع زهرة عمره في الجرى وراء النظرية والفائدة ؟ قبلوا شفاههم ، ولو أروهمهم ، ورأيتهم يستكبرون ويتعاضمون ، ويصفونك مع الملهمين بالجهل القاضح والمعجز الواضح ... !! وللمهم معذورون ، لأنهم يمتقدون أن الفن

يُضرب بها المثل في الربط والضبط ... ١١

وقبل أن أنتهى ، أحب أن أقول : إن الموسيقى فن مُلهم
أكثر منها علماً مكتسباً ، وهي وحى سماوى يهبط من عل فينقله
ويترجمه الملهمون لغة تفهمها القلوب والأرواح ... لغة لا تخضع
للقواعد ولا للنظريات ، لأنها ليست من صنع البشر ... ١
نعم ، إننى أعتقد أن مرتبة «الفنان» أعلى من مرتبة البشر ،
لأن الله اصطفاه بأنبل ما فى الحياة وأطهر ما فى الوجود ... وهو
« الفن » ، بل وأعتقد أكثر من هذا ، أعتقد أن الله اصطفاه
« بنفسية » لا تخضع لموامل الشر ، ولا تنحني أمام مغريات
الشیطان ، فالفنان لا يعرف النل ولا الحقد ، ولا المال ولا الجاه ،
لأنه يعيش كما تريد له الحياة أن يعيش ، وينتج كما يريد له الله ،
لا كما يريد له العلم والتعليم ... ١١ محمد السيد المولى

يخضع للعلم ، وكذلك تراهم - فى كل عصر - ينكرون ويحاربون
نتاج المباشرة الملهمين ... وكم شهدت مصر - أيام سيد درويش -
من صنوف الدس والتحجير لفن هذا العبقري الأوحى الذى ذاق
الأميرين من رجال مهده الموسيقى ، لا شئ ، إلا لأنه فى عرفهم
من الجاهلين ، نعم ، كم شاهدت مصر - ولا تزال - من
صنوف الاصطهاد لفن سيد من هؤلاء الناس الذين لو عاشوا
- ألف سنة ما استطاعوا أن يصلوا - مجتمعين - إلى فهم قطعة
واحدة من قطعه ... ١١

لم يعرف عن سيد أنه كان عالماً يفكر قبل أن يلحن ليخرج
تلحينه من نعمة - كذا - كما يريد المنى أو المنية ، بل كان
ينزع اللحن الخالد من صميم الحياة ، ومن صميم البيئة المصرية ،
دون أن يزن أو يقيس بمقياس النظريات ومقاييس القواعد والدُّم ،
والتك ، والوحدة . ومع ذلك ، فقد كانت تلحيناته سماوية خالدة

ابتداء من الاثنين ١٩ فبراير

بسمنا ستوديو مصر

تقدم شركة كولومبيا الفيلم السنوى للمخرج العبقري

فرانك كابرا

الذى نالت كل أفلامه الجائزة الأولى للسينما الأمريكية

مستر سميث يزور واشنطنجتون

نمبل : جين ارثر و جيس ستيوارت

الجل التجارى ٢٩٧٣